الفن الإسلامي

تمتاز منطقة الحضارة العربية التي تمتد من المحيط إلى الخليج بأن لدى شعوبها فلسفة روحية خاصة تختلف عن فلسفة الإغريق والرومان وتنعكس على فنونهم فتطبعها بطابع خاص مميز. فلما أفلح المسلمون في توحيد هذه المنطقة، وتخليصها من الاستعمار الساساني والروماني، أحست هذه الأقاليم لأول مرة في تاريخها الطويل بأنها تكون وحدة حضارية متكاملة وأصبحت هذه الحضارة التي تبلورت في ظل الإسلام تسمى الحضارة العربية. وظلت مزدهرة تشع بنورها على العالم، وتنير ظلماته إلى أن حاول الصليبيون القضاء عليها أيام صلاح الدين فالأتراك في القرن السادس عشر.

إن للشرق فلسفته الخاصة التي تنظر إلى الإنسان على أنه جزء من هذ الكون الواسع وهي تختلف تماما عن النظرة العربية التي تنظر إلى الإنسان على أنه محور هذا الوجود فكان الفنان الشرقي ينظر غالبا إلى الإنسان والحيوان والنبات كعناصر فنية يحورها وينسقها ويبسطها بحيث تعبر عن أفكاره وأحاسيسه وتحقق الغرض الفني الذي يقصده دون النظر إلى أشكالها الطبيعية والأمثلة التي تؤكد هذا كثيرة في فنون العراق وسوريا ومصر مما يستطيع الطالب أن يميزه بسهولة ويسر.

شخصية الفن الإسلامي

كانت أول مظاهر الشخصية الإسلامية، تأكيد الفلسفة الشرقية من أن الانسان جزء من هذا الكون الواسع وأن القدرة الإلهية هي القوة المسيطرة على هذا الوجود. وتتبلور شخصية الفن الإسلامي وإرادته الجديدة في ظواهر هامة نمت بطريقة تلقائية داخل إطار الفلسفة الشرقية العامة.

١- **كراهية تمثيل الكائنات الحية** : ويرجع ذلك إلى الرغبة في البعد عن المظاهر الوثنية فقد جاء الدين الإسلامي ليقضي على الوثنية ممثلة في عبادة الأشخاص ولأوثان على أن هذه الكراهية أخذت تتلاشى بالتدريج مع زيادة الوعي بحقائق العقيدة الإسلامية وظهرت الرسوم الآدمية والحيوانية على كثير من الأعمال الفنية كالتحف المختلفة وفي الرسوم الجدارية، على أنه مما يلفت النظر أن زخارف المصاحف والمساجد ظلت خالية من هذه العناصر الآدمية والحيوانية.

٢- **التقشف** : دعت العقيدة الإسلامية إلى البعد عن مظاهر الترف فاتجهت جهود المسلمين إلى البناء والعمل والبعد عن الفخامة على اعتبار أن كل ذلك عرض زائل فاستعمل الفنانون العرب خامات رخيصة كالجص والخشب والصلصال في أعمالهم الفنية، ولكنهم استطاعوا إغناءها بما أضفوه عليها من زخارف دقيقة رائعة، ومن

ابتكارات صناعية أعطت الخامة الرخيصة مظهرًا فخما جديدة مما يمكن أن يعبر عنه بالفخامة المبدلة، أي تحويل الخامة الرخيصة إلى عمل فني عظيم القيمة، وكان في استطاعة بعض الخلفاء أن يستعملوا الذهب والفضة والأحجار الكريمة في تزيين أهم مكان بالمسجد وهو القبلة ولكنهم استعاضوا عن ذلك بالتصميمات الزخرفية والنقوش الرائعة التي جعلت من المحراب قبلة رائعة تنسجم مع ما للإسلام من روعة وبساطة.

٣- **ملء الفراغ** : اهتم الفنان العربي اهتمامًا كبيرًا بزخرفة سطوح الأشياء سواء كان ذلك في العمائر أو الأواني أو التماثيل بحيث كان لا يترك فراغًا من غير زخرفة ، فكان عندما يبتكر إناء أو تحفة حتى لو كانت على شكل حيوان أو طائر يغطي سطحها بالزخارف التي كانت تسلبها مظهرها الطبيعي سلبًا معنويا بينما كانت تسكبها سحرا ورشاقة لا نظير لها.

العناصر الزخرفية الإسلامية

اعتمد الفنان العربي في تجميل منتجاته الفنية، وزخرفتها على العناصر الخطية والنباتية والهندسية والأشكال الآدمية والحيوانية وعن طريق حساسيته الفطرية، وحقق في هذه الأعمال الرشاقة والاتزان وفيما يلي تحليل عام لهذه العناصر.

١- الزخرفة الخطية. أدخل العربي الحروف العربية كعنصر رئيسي

من عناصر الزخرفة ولا شك أن استعمال الكتابة أول الأمر على المنتجات الفنية كان وسيلة من وسائل تسجيل الحمد والشكر لله.

على أن الفنان استغل هذا العنصر استغلالا جماليا رائعا، ويلاحظ أن استعمال الآيات القرآنية لتزيين المساجد يقابله استعمال الصور المستمدة من آيات السيد المسيح في تزيين الكنائس.

وأصبح من مسئولية الفنان العربي العناية بالخط وتطويعه للاستعمال الجمالي فظهرت أنواع مختلفة من الخطوط منها الخط الكوفي، وهو خط يمتاز زواياه القائمة وخطوطه المستقيمة ثم أضيفت إلى نهاياته زخارف نباتية وأصبح يسمى الخط الكوفي المزهر أو المورق ومنها الخط النسخي وهو خط لين استعمل في أول الأمر في كتابة المخطوطات ثم عمم استعماله في المباني ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي كما استعمل في زخرفة التحف المختلفة كالحشرات وبلاطات القاشاني والنسيج.

٢- الزخارف النباتية. يعتبر ميدان الزخارف النباتية من الميادين الهامة التي جال فيها الفنان العربي الذي ابتكر اشكالا نباتية مختلفة خرج بها على الأشكال الطبيعية كعادته المألوفة في التجريد والبعد عن الطبيعية.

وهناك نوع من الزخارف النباتية يطلق عليها (الارابيسك) يتكون من خطوط منحنية أو مستديرة أو ملتفة يتصل بعضها ببعض فتكون

أشكالا حدودها منحنية وقد يكون بينها فروع وزهور وعلى الرغم من بعد هذه الزخارف عن الطبيعية فإننا لا نستطيع أن نعتبرها زخارف هندسية وقد شاع استعمال هذا الضرب من الزخارف ابتداء من القرن التاسع الميلادي في العمائر والتحف وقد وصلت إلى غايتها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي.

وقد انتشر ضرب آخر من الزخارف النباتية يتكون من سيقان نبات وزهور ووريقات ، وكانت إيران أكثر البلاد اهتماما بهذا النوع من الزخرفة ، ثم انتقل هذا النوع بعد ذلك إلى مصر وسوريا في عصر المماليك.

٣- الزخارف الهندسية: تعتبر الزخارف الهندسية عنصرا أساسيا من عناصر الزخرفة الإسلامية ومنذ العصر الأموي اتجه الفنان العربي إلى الزخارف الهندسية واستعملها استعمالا ابتكاريا لم يظهر في حضارة من الحضارات وقد شاع استعمال الزخارف الهندسية في العمائر والمخطوطات والتحف المختلفة سواء كانت من الجص أو الخزف أو النسيج أو المعادن أو الرخام إلى آخره وكان الأساس الذي بني عليه الفنان العربي زخارفه الهندسية هو الأشكال البسيطة كالمستقيمات والمربعات والمثلثات والدوائر المتماسة والمتقطعة والأشكال السداسية والثمانية والأشكال المتفرعة من كل ذلك.

والزخارف الهندسية تنقل للرائي إحساسًا بالسكون كما يبدو فيها

في بعض الأحيان إحساس بالحركة نتيجة التنويع في استعمال الخامات مختلفة الألوان وتبادل الظل والنور على الأجزاء الغائرة والبارزة في الزخارف.

٤- الأشكال الآدمية والحيوانية : الفنان العربي لم يهتم بالتعبير عن الأشكال الآدمية والحيوانية تعبيرا مقصودا به ذات الإنسان والحيوان ، ولكنه استخدم هذه العناصر كوحدات زخرفية بحتة لها قيمتها الفنية وهو لم يكتف بذلك، بل كان يحلو له أن يركب منها أشكالا خرافية كالأفراس والطيور ذات الوجه الآدمي.

ومما هو جدير بالذكر أن الفنان العربي استخدم في زخارفه مزيجا رائعا من الزخارف الخطية والزخارف الهندسية والزخارف النباتية ونجح نجاحا فائقا في تجميع هذه العناصر المختلفة في أعماله الفنية بحيث حقق قيما سطحية فائقة الحد في الجمال كما حقق تنويعا في القيم الخطية وما تحدثه هذه الزخارف من ظلال مما ينبغي للطالب التعرف عليه بالممارسة والرؤية المقارنة بفنون الحضارات الأخرى.

الطراز الإسلامي المختلفة

إن خصائص الفن الإسلامي وعناصر الزخرفة جعلت الفنون الإسلامية في الأقاليم المختلفة تتشابه تشابها كبيرا في شكلها العام ، مما يوضح إلى أي حد كانت هذه البلاد مرتبطة ارتباطا وثيقا في النواحي الفنية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بحيث كانت تؤلف أمة

عربية كبيرة من الخليج إلى المحيط فلا يستطيع الشخص العادي ان يميز بين تحفة أنتجت في مصر وأخرى أنتجت في سوريا أو العراق ولعل هذه الوحدة الكبرى التي كان من أعظم مظاهرها الإنتاج الفني تدل دلالة واضحة على أن أمة العرب أمة واحدة عريقة في وحدتها. وأن الاختلافات البسيطة والمميزات الخاصة التي تميز إنتاج إقليم عن إنتاج إقليم آخر لمن قبيل الاختلاف في منتجات المدن في الإقليم الواحد فقد كان الطراز الأموي مثلا يتميز في العمائر باستعمال الحجر والعقود بينما يتميز طراز العراق باستعمال الآجر وكان الطراز في مصر مزيجا بين الطريقتين.

وقد تميز الأقاليم الإسلامية ببعض المميزات الخاصة جعلت منها طرازا فنية في إطار الوحدة الإسلامية العامة من ذلك الطراز الأموي والطراز العباسي والطراز المصري والسوري والطراز التركي والطراز الهندي والطراز الأندلسي والطراز المغربي ، ويمكن تنمية القدرة على إدراك هذه الفوارق الدقيقة بين أساليب الأقاليم المختلفة بالرؤية المتكررة وزيارة المتاحف، بحيث يتحقق لنا تقويم حضارتنا وفنوننا الأمر الذي أهمله نقاد الفن الغربيون.

فنون الكتاب:

لقد ضرب الفنان العربي بسهم وافر في جميع مظاهر الإنتاج الفني سواء كان ذلك في الفنون التشكيلية كالتصوير والخط أو التطبيقية

كالنسيج والخزف وأشغال المعادن إلى آخره.

وفن الكتاب يشتمل على فروع الفن التي تساهم في إخراج الكتاب الجميل وهي الخط والتذهيب والزخرفة والتصوير والتجليد وقد سبق أن عرفنا شيئا عن الخط كعنصر من عناصر الزخرفة ، وبقى أن نعرف شيئا عن فنون الكتاب الأخرى. وبدأت العناية بتذهيب أول صفحات الكتاب وآخرها برسوم بسيطة ثم تطورت إلى العناية بزخرفة الهوامش وغيرها بزخارف أكثر تنويعا استعملت فيها ألوان والذهب الفضة فضال عن الألوان الأخرى. ونالت زخرفة المصاحف وتذهيبها العناية الأولى، ثم تبعتها بكتب الأدب والتاريخ والطب.

فن التجليد:

يعتبر عمل المجلد استكمالا لعمل الخطاط والمذهب والمصور ويتعاون الجميع تعاونا كاملا لإخراج المخطوط بحيث تبدو فيه الوحدة والجمال والفخامة، وكانت العناية بمظهر الكتاب الخارجي عناية عظيمة تحقق جماله ومتانته. وقد استعمل في زخرفة الجلود طرقا كثيرة منها الضغط للحصول على وحدات بارزة وغائرة.

وقد امتازت مصر بصناعة التجليد ، وبخاصة في عصر المماليك فأصبحت الجلود تغطي شبكة من الزخارف الهندسية والنباتية البديعية وكانت بعض الجلود تزخرف بصرة كبيرة في الوسط وأرباع صرر في الأركان.

ويختلف التصوير الإسلامي عن التصوير المعاصر الذي يتميز بخصائص واضحة من حيث الخامات واستعمالها وطريقة الأداء والموضوعات إلى آخره.

وتحقق في فن التصوير الإسلامي مثالية الفن الإسلامي كاملة ، فالصور ذات ألوان مضيئة. والأشكال الآدمية والحيوانات مرسومة من غير تجسيم والأشجار والجبال والمنازل وما إلى ذلك منسقة ومبسطة من حيث الشكل العام، تزخرف بالزخارف الهندسية والنباتية وهذا الأسلوب يكسب الصورة الأناقة والجمال الخيال الساحر الذي لا نظير له.

وللفن التصوير الاسلامي مجالات كثيرة نذكر منها:

١- التصوير الجداري: تزخرف كتب المؤرخين بأحاديث عن الصور الجدارية التي كانت تزين القصور والحمامات في جميع العصور الإسلامية على أن الأمثلة الموجودة الآن للتصوير الجداري الإسلامي قليلة بالنسبة للصورة الجدارية التي نجدها في الفنون الأوربية.

وفي جميع الصور الجدارية الإسلامية نجد أن الفنان لم يراع دقة تمثيل المظهر الطبيعي وهي لهذه الأسباب تعتبر صورا زخرفية أكثر منها توضيحية، وبمقارنة هذه الصور بالصور الحائطية (الفرسكو) التي نفذت في أوربا في عصر النهضة نشعر بفارق الأسلوبين، ففي عصر النهضة كان الفنان يهتم بالمظهر الطبيعي للأشكال بحيث تبدو وكأنها

انتزعت من الطبيعية انتزاعا. ومن أمثلة الصور الجدارية الإسلامية ما عثر عليه في قصر عمره في بادية الشام (العصر الأموي) وفي قصر الخير العربي الذي بناه هشام بن عبدالملك وفي قصر الجوسق الخافاني بسامرا وفي القصر العباسي وفي الحمامات الفاطمية بالقاهرة وكانت هذه الصور تعبر عن موضوعات مختلفة تناولت الأشكال الآدمية في تكوينات زخرفية بديعة.

٢- صور الفسيفساء : عثر في المسجد الأموي بدمشق على مجموعة من صور الفسيفساء تمثل المناظر الطبيعية لمدينة دمشق بالأشجار والمباني ونهر بردي ، منفذة بأسلوب زخرفي بسيط وألوان ساطعة ، وقد لوحظ أن هذه الصور خالية من الاشكال الآدمية، والحيوانية بينما نجح الفنان في توزيع كتل المباني بأحجامها المختلفة بحيث وصل إلى تحقيق التوازن الفني في الصور.

٣- تصوير المخطوطات: بدت العناية بتصوير المخطوطات من القرن التاسع والعاشر والحادي عشر ، ويطلق على المجموعة التي انتجت في هذه الفترة – مدرسة بغداد – وتمتاز صور هذه المدرسة بالبساطة والتكوين الذي يعتمد على جمال توزيع الخطوط والالوان كما تمتاز باستعمال عناصر معينة كالهالات المستديرة فوق الاشخاص.. وقد أخذ تصوير المخطوطات يسير في مدارج الرقي للتعبير عن الأشخاص والاشجار والحيوانات والمباني محتفظا بطابعة الزخرفي

وتكوينه الأنيق، وقد تبلورت هذه الخصائص في أواخر القرن الرابع عشر وتنسب الصور التي رسمت في هذا العصر إلى المدرسة التيمورية التي تعتبر المدرسة الرومانتيكية في فن التصوير الإسلامي.

وقد ظهرت مدارس للتصوير في تركيا والهنود قامت أساسا على أكتاف مدرسة التصوير في إيران ، ثم أخذت تتبلور شخصيتها المحلية في اطار الشخصية الإسلامية. وقد فقد التصوير الإسلامي طابعه المميز نتيجة لتزايد النفوذ الغربي وسيطرته على هذه الأقاليم ابتداء من القرن الثامن عشر الميلادي.

الفنون التطبيقية

سبق أن أشرنا إلى أن الفنان العربي أنتج في جميع فروع الفن التطبيقي انتاجا يوضع في مصاف أعظم ما وصلت إليه الحضارات الأخرى، ومن أمثلة ذلك.

الخزف:

يعتبر الخزف الإسلامي من أجمل أنواع الخزف في العالم ، فله طابعه المميز الذي لا يخطئه الذوق، وقد وفق الخزافون العرب لابتكار أنواع مختلفة من الطلاء كان من أهمها البريق المعدني إذ يعتبر الخزف ذو البريق المعدني من أفخر أنواع الخزف.

ومع وجود طابع عام مميز للخزف الإسلامي في العصور المختلفة

فهناك فروق دقيقة بين الأنواع التي تنتجها الاقاليم الإسلامية كإيران والشام وآسيا الصغرى ومصر والأندلس وهذه الفروق الدقيقة يمكن أن تدرك بالممارسة والرؤية الكثيرة.

وقد شملت صناعة الخزف الإسلامي كل ما تحتاج إليه الحياة اليومية من أوان كالأطباق والسلاطين والجرار والقدور والمسارج والتماثيل الصغيرة والبلاطات.

شبابيك القلل :

من الميادين الفنية الشعبية التي اختصت بها مصر زخرفة شبابيك القلل ، فقد استعمل الصانع في ذلك زخارف هندسية ونباتية وحيوانية وكتابية والتأثير الذي تعطيه هذه الزخارف كالتأثير الذي تحدثه الدانتلا.

ومتحف الفن الإسلامي بالقاهرة يزخر بنماذج من التحف التي أنتجها الفنان العربي في النسيج والمعادن والزجاج والسجاد والتحف المعدنية وأشغال العظام والعاج، الخشب، والحجر، والجص، والرخام. وتتميز هذه التحف جميعًا بالطابع الإسلامي المميز المتمثل في استعمال وحدات زخرفية خطية أو نباتية أو هندسية أو آدمية أو حيوانية.

ومما هو جدير بالذكر أن الفنون العربية أثرت تأثيرًا واضحًا في

فنون أوروبا في العصر الوسيط ، إذ نجد نماذج كثيرة للتحف المعدنية في التجليد وفي الزخارف الخطية والنسيج عملت تقليدا للتحف الإسلامية التي نقلت إلى أوربا إبان الحروب الصليبية فانتقلت معها تأثيراتها إلى الفنون الغربية ولعل بعض الأمثلة الممتازة في التحف المصنوعة من البللور الصخري لا نجدها إلا في تحف أوربا وبين كنوز كنائسها.

وإن ممارسة تذوق الفن الإسلامي وإدراك قيمة في فروعة المختلفة من شأنه أن يتيح لنا فرصة التعرف على جمال هذا الفن وعظمته وأمكاننا أن نترسم خطاه وأن نعيد لفننا القومي المعاصر أمجاده إذا استطعنا أن نسير في طريق إنتاج العمل الفني الجيد .